إبليس يُعَلِّم(١) (٢)
ـ ٣ ـ

قال أحمد بن مِسكين : ودار السَّبتُ الثَّالثُ ، وجلستُ مجلسي للنَّاس ، وقد انتظَمَتْ حَلْقتُهُم ؛ فقام رجلٌ مِنْ عُرْض المجلس ، فقال : إنَّ الحسنَ بن شُجاع البلخيَّ تلميذَ الإمام أحمد بن حنبل(٣) ، كان منذ قريب يحدِّثنا بأحاديثَ عن الشَّيطان ، حفظنا منها قوله ﷺ : « إنَّ المؤمنَ يُنْضي(٤) شيطانَه ، كما يُنضي أحدُكم بعيرَه في سفره »(٥) . وكان الحسن يقول في تأويله : إنَّ شيطانَ الكافر دَهينٌ ، سمينٌ ، كاسٍ ، وشيطان المؤمن مَهزولٌ ، أشعثُ ، أغْبرُ ، عارٍ . فهل يأكلُ الشَّيطان ، ويدَّهِن ، ويلبَسُ ؛ ليكون له أن يجوعَ مع المؤمن ، ويَعرَى ، ويتشعَّث ، وَيغْبَرَّ ؟

قال ابن مسكين : فقلت في نفسي : لا حول ولا قوة إلا بالله ! ما أرى السَّائل إلا شيطانَ هذا السَّائل ؛ فإنَّ إبليسَ إذا أراد أن يَسْخَر من العالم ويُسمعَه طَنْزَه(٦) ، وتهكُّمه ؛ حرَّك من يسأله عنه : ما هو ، وكيف هو ؛ كأنَّما يقول له : تَنبَّه ـ ويحك ! ـ على معنايَ ، فأنت تتكلَّم ، وأنا أعمل ، وأنت صورةٌ في الردِّ عَلَيَّ ، ولكنِّي حقيقةٌ من الرَّدِّ عليك ، وما أنت في محاربتك لي بالوعظ إلا كالَّذي يريد أن يضربَ عُنُقَ عدوِّه بمئة اسمٍ وُضِعَتْ للسَّيف . . .

---

(١) انظر الفصلين السابقين . (س) .

(٢) داعبنا إبليس ـ لعنه الله ـ مداعبةً ثقيلةً في كتابة هذا المقال ، وسنقتصُّ للقراء حكايته في مقالة : (دعابة إبليس) . (ع) .
قلت : « نقتص » : اقتصَّ الحديث : رواه على أصله .

(٣) توفي ابنُ شجاع هذا سنة (٢٤٤هـ) ، وكان من حُفَّاظ (بلخ) . (ع) .

(٤) « ينضي » : أي : يهزله ، ويجعله نضواً . والنضو : الدابة التي أهزلتها الأسفار ، وأذهبت لحمها .

(٥) رواه أحمد في المسند (٢/ ٣٨٠) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢٦) وانظره في : ضعيف الجامع (١٧٧٢) .

(٦) « الطنز » : التهزُّؤ ، والتهكم ، ولعلَّ منه كلمة (طز) عند العامة . (ع) .

قال : وكنت قد سمعت خبراً عجيباً عن أبي عامرٍ قَبيصةَ بن عُقْبَة الكوفيِّ المحدِّث الحافظ الثِّقة أحدِ شيوخ أحمد بن حنبل[1] ؛ وهو الرَّجلُ الصَّالح العابد ؛ الَّذي كان يقال له : (راهبُ الكوفة) ؛ من زهده ، وعادته ، واحتباس نفسِه في داخله كأنَّما جَسَدُه جِدارٌ بين نفسه وبين الدُّنيا ، فقلت : والله ! لأغيظنَّ الشَّيطانَ بهذا الخبر ، فإنَّ أسماء الزُّهاد ، والعبَّاد ، والصَّالحين هي في تاريخ الشَّياطين كأسماءِ المواقع التي تنهزمُ فيها الجيوش ، وما الرَّجلُ العابد إلا صاحب الغَمَرات[2] مع الشَّيطان ، وكأنه يحتملُ المكارهَ عن أمَّةٍ كاملةٍ ، بل عن البشريَّة كلِّها حيث كانت من الأرض ، فالنَّاس يحسبونه قد تخلَّى من الدُّنيا ، ويظنُّون التَّركَ أيسرَ شيءٍ ، وما علموا : أنَّ الزُّهد لا يستقيم للزَّاهد حتَّى يجعلَ جسمَه كأنَّه نظام آخرَ غير نظام أعضائه ؛ ولا أشَقَّ من ذلك على النَّفس . ومعجزةُ الزَّاهد : أنَّهُ مكلفٌ أن يُخرج للنَّاس أقوى القوَّة من المعاني ؛ التي هي عند النَّاس أضعفُ الضَّعف ؛ ولو أنَّ مِلِكاً عظيماً تعب في جمع الدُّنيا ، وفتْح الممالك حتَّى حِيزَتْ له جوانبُ الأرض ؛ لكان عملُهُ هذا هو الوجهَ الآخرَ لتعبِ الزَّاهد في مُجاهَدَةِ هذه الدُّنيا ، وتركِها .

* * *

قال أحمد بن مسكين : وقصصتُ عليهم القصَّة ، فقلت : كان أبو عامر قَبيصةُ بن عُقبة كثيرَ الفكر في الشَّيطان ، يوَدُّ لو رآه ، وناقَلَهُ الكلامَ ؛ وكان يتدبَّر الأحاديثَ الَّتي صحَّ ورودُها فيه ، ويفسِّر معنى الشَّيطان بأنَّه الرُّوحُ الحيُّ للخَطأ على الأرض ؛ والخطأ يكونُ صواباً محوَّلاً عن طريقته ، وجِهَتِهِ ، ولهذا كان إبليسُ في الأصل مَلَكاً من الملائكَة وتحوَّل عن طبيعته حين خُلق آدمُ عليه السلام ؛ أي : وُجِدَ في الكون روحُ الخطأ حين وُجِد فيه الرُّوحُ الذي سيُخطئ .

فلمَّا هبط آدمُ من الجنَّة ، وحُرِمَها هو ، وزوجُه ، وذرِّيَّتُه : كان إبليسُ لعنه الله ! هو معنى بقاء هذا الحرمان واستمرارِه على الدَّهر ، فكأنَّ هذه الآدميَّةَ أخرجت من الجنَّة ، وأُخرجتَ معها قوَّةٌ لا تَزال تَصُدُّها عنها ، ليضطربَا في الكِفاح مَلِيّاً مِنْ زمنٍ هو عمرُ كلِّ إنسانٍ ، وهذا هو العدلُ الإلهيُّ : لم يَعرف آدمُ حقَّ الجنَّة ،

---

(١) توفي سنة (٢١٥هـ) .

(٢) « الغمرات » : جمع الغمرة ، وهي : الشدَّة والانهماك بالباطل .

فعُوقب ألا يأخذَها إلا بحقِّها ، وأن يقاتل في سبيل الخير قوَّة الشَّرِّ .

وبات أبو عامرٍ ذاتَ ليلةٍ يفكِّر في هذا ، ونحوِه بعد أن فرغ من صلاته ، وقراءته ، ثمَّ هَوَّمَ[1] ، فكان بين اليقَظة والنَّوم ، وذلك حين تكونُ العينُ نائمةً ، والعقلُ لا يزال منتبهاً ، فكأنَّ العينَ متراجِعَةٌ ، تُبصر من تحتِ أجفانها بصراً يُشارِكها فيه العقل .

فرأى شيخُنا أبو عامر صورةَ إبليسَ جاءه في زيِّ رجلٍ زاهدٍ ، حَسَنِ السَّمْتِ ، طيِّبِ الرِّيح ، نظيفِ الهيئة ، وكاد يُشَبَّهُ عليه لولا أنَّه قد عرفه من عينيه ، فإنَّ عيني الكاذب تَصْدُقان عنه ، وقد علم الله : أنَّ الكاذبَ آدميٌّ قَفْرٌ كالمَتَاهَةِ من الأرض ، فجعل عينيه كالعلاماتِ لمن خاض الفلاة .

وظهر الشَّيطانُ زاهداً ، عابداً ، تقيّاً ، كأنه دِينٌ صحيحٌ خُلِقَ بَشراً ، فَصرَخَ فيه أبو عامر : عليكَ لعنة الله ! أمعصيةٌ في ثوب الطَّاعة ؟!

قال إبليس : يا أبا عامر ! لو لم تقل المعصيةُ إنَّها طاعةٌ لم يُقارِفْها أحدٌ . وهل خُلقت الشَّهواتُ في نفس الإنسان وغريزته إلا لتقريب هذه المعاصي من النَّفس ، وجعْلِ كلٍّ منها طاعةً لشيءٍ ما ؛ فتقع المعصية بأنَّها طاعةٌ ، لا بأنَّها معصية ؟ أو لا ترى يا أبا عامر ! أنَّ الحيلةَ مُحكمةٌ في الدَّاخل من الجسم أكثرَ ممَّا هي محكمةٌ في الخارج عنه ، وأنَّه لولا أنَّ هذا الباطنَ بهذا المعنى ، وهذا العملِ لما كان لظاهر الوجود كلِّه في الإنسان معنىً ، ولا عمل ؟

قال الشَّيخ : عليك لعنة الله ! فما أرى الموتَ إلا ردّاً عليك أنت ، ليتبيَّنَ النَّاسُ : أنَّك الممتلىءُ ، الممتلىءُ ، ولكنَّك الفارغ ، الفارغ ؛ بل كلُّ شهواتك سخريةٌ منك وردٌّ عليك ، فلا طعْم لِلذَّة من لذاتك إلا وهي تموت ، وإنَّما تمامُ وجودِها ساعةَ تنقضي ؛ ومتَّى قالت اللذةُ : قد انتهيت . فقد وصفَتْ نفسَها أبلغَ الوصف .

قال إبليس : يا أبا عامر ! ولكن اللَّذة لا تموت حتَّى تَلدَ ما يُبقيها حيَّةً ، فهي تلد الحنينَ إليها ، وهو لا يسكن حتَّى يعودَ لذةً تنقضي ، وتلد .

---

(١) « هوَّم » : هوَّم الرجل : هَزَّ رأسه من النُّعاس .

قال الشيخ : معاني التُّراب ، معاني التراب ؛ كلُّ نَبْتَةٍ فيها بِذْرتُها ، ولكن ـ عليك لعنة الله ! ـ لماذا جئتني في هذه الصُّورة ؟

قال إبليس : لأنِّي لا ألبسُ إلا محبَّةَ القلبِ الآدميِّ ، ولولا ذلك ؛ لطردتْني القلوبُ كلُّها ، وبطَلَ عملي فيها ، وهل عملي إلا التَّلبيسُ ، والتَّزوير ؟ أفتدري يا أبا عامر ! أنِّي لا أعتري الحيوانَ قطُّ .

قال الشَّيخ : لأنَّ الحيوان لا ينظر إلى الشَّيء إلا نظرةً واحدةً ، هي نظرُه ، وفهمُه معاً ، فلا محلَّ للتَّزوير مع هذه النَّظرة الواحدة ؛ وصدق الله العظيم : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٢٢١ ـ ٢٢٢] . فأنت أيُّها الشَّيطانُ التَّزويرُ ، والتَّزويرُ موضعُه الكذب ؛ فمن لم يكذبْ في الفكر ، ولا في النَّظر ، ولا في الفهم ، ولا في الرَّجاء ؛ فليس لك عنده عمل .

قال إبليس : يا أبا عامر ! وهل ترى (رحمك الله !) أعجبَ ، وأغربَ ، وأدعى إلى الهُزء ، والسُّخرية من أنَّ أعظم العقلاءِ الزُّهَّاد العُبَّادِ هو في جملة معانيه حيوانٌ ليس له إلا نظرةٌ واحدةٌ في كلِّ شيء ؟

قال الشَّيخ : عليك ، وعليك . . . ! إنَّ الحيوانَ شيءٌ واحدٌ ، فهو طبيعةٌ مسخَّرةٌ بنظامها ، ولكنَّ الإنسان أشياءُ متناقِضَةٌ بطبيعتها ، فألوهيتُه أن يُقِرَّ النِّظامَ بين هذه المتناقِضَاتِ ، كأنَّما امتُحِنَ ، فأعطيَ من جسمه كوناً فيه عناصرُ الاضطرابِ ، وحوله عناصرُ الاضطراب ، ثُمَّ قيل له دَبِّره .

فضحك إبليس . قال الشيخ : ممَّ ضحكْتَ لعنك الله ؟!

قال : ضحكتُ من أنَّك أعلمتني حقيقةَ الإبليسيَّة ، فالزُّهَّادُ هم الصَّالحون لأن يكونوا أعظمَ الأبالسة . . .

قال الشَّيخ : عليك لعنة الله ! فما هي تلك الحقيقة ؛ الَّتي زعمت ؟

قال إبليس : والله يا أبا عامر ! ما غلا إنسانٌ في زَعْم التَّقوى والفضيلة إلا كانت هذه هي الإبليسيَّة ؛ وسأعلِّمك يا أبا عامر ! حقيقةَ الزُّهد ، والعبادة . فلا تقلْ إنَّها ألوهيةٌ تُقِرُّ النِّظامَ بين متناقِضاتِ الإنسان ، ومتناقضاتِ الطَّبيعة .

قال الشَّيخ : وتسخَرُ منِّي لعنك الله ؟! فمَتى كنتَ تعلَم الحقيقة ، والفضيلة ؟

قال إبليس : أولم أكنْ شيخَ الملائكة ؟ فمن أجدرُ من شيخ الملائكة أن يكونَ

عالمَهَا ، ومعلِّمَها ؟

قال : عليك لعنة الله ! فما هي حقيقة الزُّهد ، والعبادة ؟

قال إبليس : حقيقتها يا أبا عامر ! هي الَّتي أعجزتني في نبيِّكم .

قال الشَّيخ : صلَّى اللهُ عليه ، وسلَّم ، فما هي ؟

قال إبليس : هي ثلاثٌ بها نظامُ النَّفس ، ونظامُ العالم ، ونظامُ اللَّذات ، والشَّهوات : أنْ تكونَ لك تقوى ، ثُمَّ يكون لك فِكْرٌ من هذه التَّقوى ، ثمَّ يكونُ لك نظرٌ إلى العالم من هذا الفكر . ما اجتمعتْ هذه الثَّلاث في إنسانٍ إلا قهر الدُّنيا ، وقهرَ إبليس .

فإنْ كانت التَّقوى وحدَها ـ كتقوى أكثر الزُّهاد والرهبان ـ فما أيسر أن أجعل النَّظر منها نظَر الغفلة ، والجبن ، والبلادة ، والفضائل الكاذبة ، وإن كان الفكر وحدَه ـ كفكر العلماء الشُّعراء ـ فما أهونَ أنْ أجعلَ النَّظر بِهِ نظر الزَّيغ ، والإلحاد ، والبَهيميَّة ، والرَّذائل الصَّريحة .

قال الشَّيخ : صدق الله العظيم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] قال إبليس : ياأبا عامر ! ما يضرُّني والله ! أن أفسِّر لك ، فإنَّ قارورةً من الصِّبغ لا تصبُغُ البحر ، وأنا أعدُّ الزُّهاد ، والعلماء المصلحين ، فأضعُ في النَّاس بجانب كلِّ واحدٍ منهم مئة ألف امرأةٍ مفتونةٍ ، ومئة ألف رجلٍ فاسقٍ ، ومئة ألف مخلوقٍ ظالمٍ ، فلو أنَّك صبغت البحر بملء قارورةٍ حمراء ؛ لما صبغتَ البحر الإنسانيَّ بالزَّاهد والمصلح ، ما دام المصلح شيئاً غير السَّيف ، وما دام الزَّاهد شيئاً غير الحاكم .

قال الشَّيخ : لعنك الله من شيطانٍ عارمٍ ! فإذا وضعت المصلح بين مئة ألف فاسدٍ ؛ فهل هذه إلا طريقةٌ شيطانيَّةٌ لإفساده ؟

قال إبليس : ومئة ألف امرأةٍ فتَّانةٍ مفتونةٍ يا أبا عامر ! كلُّ واحدةٍ تحسب جسمها . . .

فصرخ الشَّيخ : اغربْ عنِّي ! . . . عليكَ لعنةُ الله !

قال إبليس : ولكنَّ الآية الآية يا أبا عامر ! لقد لقيتُ المسيح ، وجرَّبته وهو كان تفسيرها .

قال الشَّيخ : عليه السَّلام ، وعليك أنت لعنة الله ! فكيف قال ، وكيف صنع ؟

قال إبليس : ألقيتُ به جائعاً في الصَّحراء ، لا يجدُ ما يطعَمه ، ولا يظنُّ : أنَّه يجد ، ولا يرجو أن يظنَّ ، ثُمَّ قلت له : إن كنت روح الله وكلمته كما تزعم ؛ فمُرْ هذا الحجَرَ ينقلب خبزاً . فكان تقيّاً ، فتذكَّرَ ، فإذا هو مُبْصِرٌ ، فقال : ليس بالخبز وحدَه يحيا الإنسان ، فمثلُ هذا لو مات جوعاً لم يتحوَّل ؛ لأنَّ الموتَ إتمامُ حقيقته السَّامية فوقَ هذه الدُّنيا ، ولو مُلِئتْ له الدُّنيا خبزاً وهو جائعٌ لم يتحوَّل ؛ لأنَّ له بَصَراً من فوقِ الخبز إلى حقيقته السَّماوية ؛ فليس بالخبز وحده يحيا ، بل بمعانٍ أخرى هي : إشباعُ حقيقته السَّماوية ؛ الَّتي لا شهوةَ لها .

ثُمَّ ارتقيتُ به إلى ذِرْوة جبلٍ ، وأريتُه ممالكَ الخَافِقَيْن ، كشفتُها كلَّها لعينيه ، وقلت له : هذا كلُّه لك إذا أنت سجدتَ لي ! فكان متَّقياً ، فتذكَّرَ ، فإذا هو مُبصرٌ : أبصر حقيقةَ الخيال الذي جَسَّمتُه له ، وعلم : أنَّ الشَّيطان يُعطى مثلَ معاني هذه الممالكِ في جَرعة خمرٍ ، كما يُعطيها في ساعة لذَّةٍ ، كما يُعطيها في شفاء غيظٍ بالقتل ، والأذى ؛ ثُمَّ لا يبقَى مِن كلِّ ذلك باقٍ غيرُ الإثم ، ولا يصحُّ منه صحيحٌ إلا الحرام . ومَن ملَكَ الدُّنيا نفسَها لم يبقَ لها ؛ إذا بقيتْ ، فهي خَيالٌ في جَرعة الحياة ، كما هي خيالٌ في جرعة الخمر .

يا أبا عامر ! إنَّ هذا النَّظر ، الذي وراءه التذكُّر ؛ الذي وراءه التَّقوى ؛ الَّتي وراءها الله ـ هذا وحدَه هو القوَّةُ ؛ الَّتي تتناول شهواتِ الدُّنيا فتُصفِّيها أربعَ مرَّاتٍ حتَّى تعودَ بها إلى حقائقها التُّرابيَّةِ الصَّغيرةِ ؛ التي آخرُها القبر ، وآخر وجودِها التَّلاشِي .

فالبصرُ الكاشفُ ؛ الذي يُجرِّد الأشياء من سِحرها الوهمِيِّ ، هذا هو كلُّ السِّرِّ .

* * *

قال الشَّيخ : لعنك الله ! فكيف مع هذا تفتن المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ! هذا سؤالٌ شيطانيٌّ ؟ . . . تريد ـ ويحكَ ! ـ أن تحتالَ على الشَّيطان ؟ ولكن ما يضرُّني أن أفسِّرَها لك .

ليس الإيمانُ هو الاعتقادَ ، ولا العملَ ، ولو كان من هذين لما شَقَّ على أحدٍ ،

ولصلُحت الدُّنيا ، وأهلُها ؛ **إنَّما الإيمانُ وضعُ يقينٍ خفيّ ، يكونُ مع الغريزة في مَقَرِّها ، ويصلُح أن يكونَ في مقرِّها لتَصْدُرَ عنه أعمالُ الغريزة ؛ وهذا اليقينُ لا يصلح كذلك إلا إذا كان يقيناً ثابتاً بما هو أكبرُ من الدُّنيا ، فيرجع إليه الإنسانُ ، فيتذكَّر ، فيُبْصِر . هناك ميراثٌ من الآخرة للمؤمن ، فاليقينُ بهذا الميراثِ هو سرُّ الإيمان .**

والعملُ الشَّيطانيُّ لا يكونُ إلا في إفساد هذا اليقين ومعارضةِ الخيالِ العظيم الَّذي فيه بالحقائق الصَّغيرة ؛ الَّتي تظهرُ للمغفَّل عظيمةً ، كما تُشَبُّ نارٌ أكبرُ من الشَّمس .

ومتى صغُر هذا اليقينُ ، وكانت الحقائقُ الدُّنيويَّةُ أكبرَ منه في النَّفس ، فأيسرُ أسبابِ الحياة حينئذٍ يُفسِد المعتقَدَ ، ويُسقِطُ الفضيلة ؛ وبدرهمٍ واحدٍ يُوجَدُ اللِّصُّ حينئذ .

أمَّا إذا ثبت اليقين فالشَّيطانُ مع الإنسانِ يصغرُ ، ثمَّ يصغرُ ، ويَعجز ثمَّ يعجز . حتَّى ليرجعُ مثلَ الدِّرهم إذا طمعَ الطَّامعُ أن يجعلَ الرَّجلَ الغنيَّ الكثيرَ المال لِصّاً من اللُّصوص بهذا الدِّرهم .

قال الشَّيخ : لعنك الله ! فإن لم تستطع إفساد هذا اليقين ؛ فكيف تصنع في فتنة المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ! إن لم أستطع إفسادَ اليقين زدتُه يقيناً ، فيفسد ، واستحسانُ الرجل لأعماله السَّامية قد يكون هو أوَّلَ أعماله السَّافلة ؛ وبأيِّ عجيبٍ يكون الشَّيطانُ شيطاناً إلا بمثل هذا ؟

* * *

قال أحمد بن مسكين : وغضب الشَّيخ ، فمدَّ يدَه فأخذ فيها عُنُق إبليس وقد رآه دقيقاً ، ثُمَّ عَصَرَه عَصْراً شديداً يريد خنْقَه ؛ فقهقه الشَّيطانُ ساخراً منه . ويتنبَّه الشيخ ، فإذا هو يشدُّ بيده اليمنى على يده اليسرى . . .

* * *